مدينة قفصة

مدينة لها تاريخ : قفصة : حضارتها من أقدم الحضارات، ضاربة جذورها في عمق التاريخ

أجمع المؤرخون على أن قفصة هي بوابة الصحراء وأقدم مدينة في القارة الافريقية، حضارتها من أقدم الحضارات إذ تعود إلى ما يقرب من ثمانية آلاف سنة. ويذكر علماء الآثار ومؤرخو الحضارات بأن هذه الحضارة معروفة بالحضارة الكبصية أو القفصية إذ أن هذه المدينة ومنذ سحيق العصور هي مركز الحضارة في افريقيا وان سكانها كانوا ميالين للسلام محبين للعدل مقاومين للاستبداد ومنقطعين إلى العلم والزراعة والصناعة. تسمية قفصة هي اشتقاق عربي للتسمية اللاتينية (capsa) ابتكر منها الباحث «دي موغان» كلمة «capsien» اسما للحضارة التي تعود للعصور الحجرية القديمة .

وتمثل جهة قفصة أهم مراكزها ومثال ذلك «الرمادية»

الكدية السوداء بحي الدوالي التي يحتضنها جب العسالة بالقرب من وادي بياش وهي عبارة عن ربوة من الرماد والحجارة المتفحّمة وقواقع الحلزون والصوان المكشوط تقوم شاهدة على نمط عيش انسان الحضارة القفصية وعراقة استقراره بهذه الربوع منذ آلاف السنين .

انتشرت الحضارة القفصية انتشارا واسعا وأثرت في عدة حضارات أخرى. ويقول المؤرخ «ريغاس» ان أصل مدينة فرنسا بل أوروبا في طور من أطوار «الباليوتية» وهو الطور «الأورنياكي» نشأ عن قدوم موجات من رجال المدينة القفصية وذلك لآن الآثار الموجودة بقفصة سبقت في التاريخ نفس تلك الآثار الموجودة بأوروبا والتي هي من نوع ما وقع عليه العثور بمدينة «أورويلك» بفرنسا .تأسيس مدينة قفصة قديم وغير معهود تنسبه الأسطورة التي أوردها اللاتيني «سالوست» إلى الإله «آليي» أو الفينيقي «هرقل» والمصادر العربية الوسطية تنسبه إلى «شنتيان غلام النمرود وملك الكلدانيين الأسطوري» والواقع أن ظروفا موضوعية ساعدت في نشأتها خصوصا مميزات موقعها الجغرافي ووجود عدد هام من عيون الماء الطبيعية التي مثلت شريانا حيويا للاستقرار.

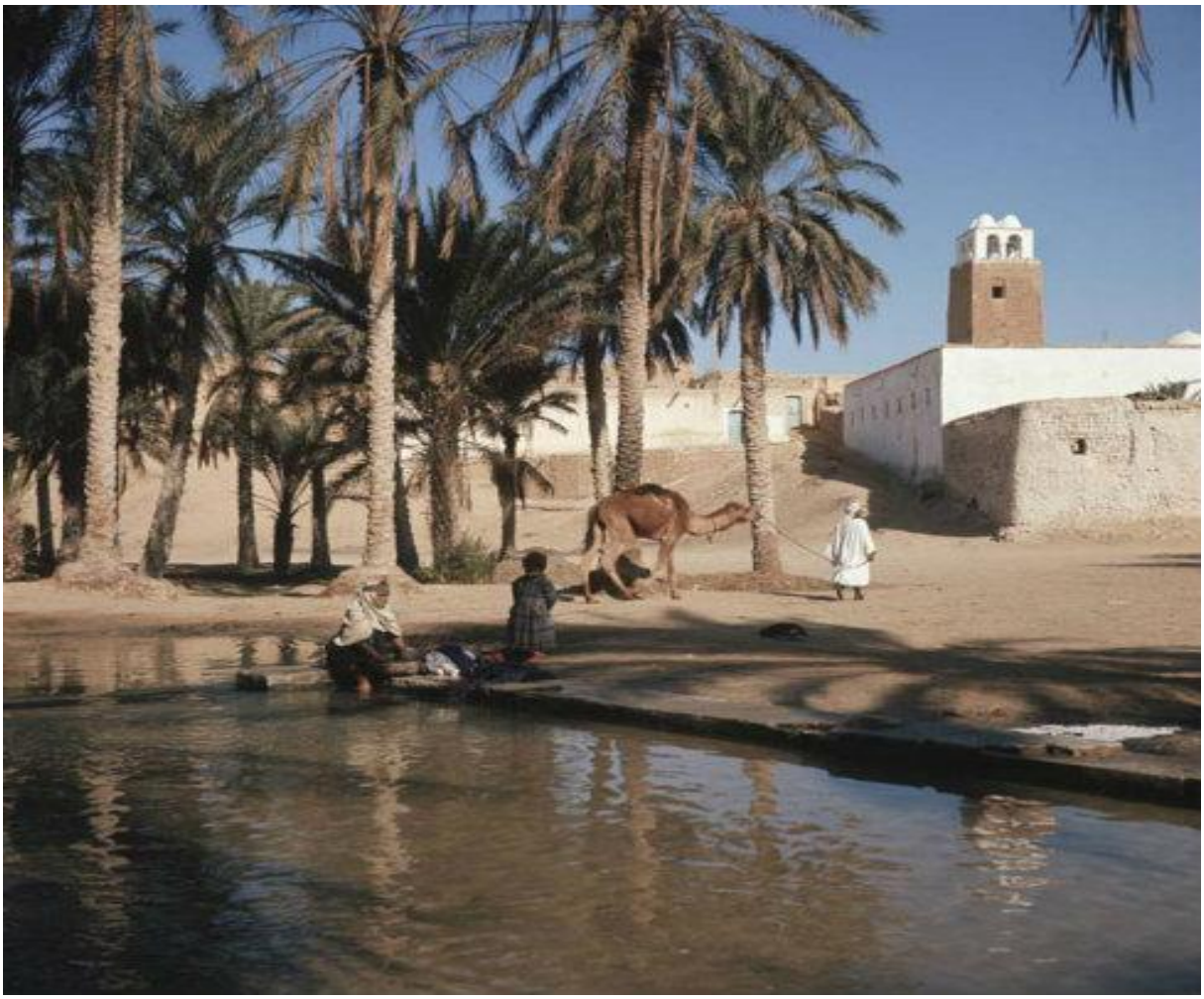

وبالتالي تمتاز قفصة بعراقة تاريخها الذي تعاقبت ضمنه عدة حضارات وتعتبر مجال استقرار بشري حيث يعتبر معلم «القطار» أقدم المعالم الدينية المكتشفة يجسد بناء بسيطا أقامه الإنسان منذ ما يقرب عن 40 ألف سنة ق.م على ضفاف سبخة لغايات عقائدية للمحافظة على منبع الماء ويمثل البناء في كومة مخروطية الشكل تتركب عناصرها من حجارة وعظام حيوانات وأدوات من الصوان يعود إلى العصر الموستيري وكذلك الآثار المتنوعة خاصة بمنطقة الجفارة قرب مدينة الرديف. ويحتوي متحف قفصة على نماذج من أشكال الصوان المتنوعة التي كان يعتمدها انسان ما قبل التاريخ في أنشطته.

توالت على مدينة قفصة عدة حضارات القرطاجنية والبونيقية وظهرت الحضارة الرومانية سنة 117م حيث تمتعت بنظام بلدي مرن توج بالحصول على قانون المدينة اللاتينية في عهد الامبراطور «طراجانوس» 89 117م. وبعدما احتل الرومان قفصة في القرن الثاني قبل الميلاد نمت المدينة لتتحول إلى ولاية. وتم تشييد حوضين كبيرين يعرفان اليوم بالأحواض

الرومانية تحيط بها جدران عالية مبنية بحجارة كبيرة الحجم ويتم تمويلها بينابيع طبيعية وتستعمل مياهها لري الواحة القريبة.

وبداية من 534م جعل البيزنطيون من قفصة عاصمة لإقليم البيزاسانا (الوسط التونسي) وعرفت ازدهارا حضاريا في تلك الفترة بقيت آثاره إلى اليوم السور أو ما يعرف اليوم بالبرج هذا المعلم البيزنطي استغله أبو عبد اللّه محمد الحفصي سنة 1434م وأسس على أنقاض هذا المعلم برجا كبيرا وهو إلى اليوم يميز مدينة قفصة .وتم ترميمه وإصلاحه سنة 1663م وكذلك في القرن التاسع عشر ولكن سنة 1943م تعرضت بعض أجزائه إلى الاتلاف وذلك أثناء الحرب العالمية الثانية. ويتم استغلاله في الوقت الحاضر كمسرح للهواء الطلق ويحتضن كل صائفة فعاليات المهرجان الوطني بالبرج.

أما الفتح الاسلامي فقد تم نهائيا سنة 693م على يد القائد العربي حسان بن النعمان وقد كانت قفصة عاصمة لاقليم شاسع يعتبر ثالث اقليم في افريقية وبدخول الهلاليين المنطقة وفقدان الحكم المركزي للدولة الزيرية السيطرة على البلاد التي آلت إلى دويلات كانت قفصة عاصمة لاحداها وهي دولة بني الرند التي عمرت قرنا كاملا (445 545) وانتهت بقيام الدولة الموحدية بالمغرب وهزمت قفصة سنة 583 على يد المنصور الموحدي نتيجة عصيانها لدول الموحدين . وقد حافظت مدينة قفصة على أهميتها خلال العصر الوسيط ضمن شبكة من الطرقات الرابطة بين المشرق والمغرب وبلاد السودان عبر عنها الادريسي بقوله: «مدينة قفصة مركز، والبلاد بها دائرة» وفي العهد الأغلبي شيد بها خلال القرن التاسع ميلادي الجامع الكبير الذي لا يزال شامخا بصحنه المحاط بأروقة من الجهات الأربعة وقاعة صلاة تقوم على أعمدة وتيجان قديمة.

سيدي صاحب الوقت" التونسي.. ثالث أقدم مساجد أفريقيا

على بعد أمتار قليلة من وسط مدينة قفصة، جنوب غربي تونس، وبجانب السور البيزنطي، ترتفع مئذنة مسجد "سيدي صاحب الوقت" شاهدة على عراقة هذا المعلم التاريخي الذي يقول مؤرخون إنه ثالث أقدم مسجد في أفريقيا،
ومسجد "سيدي صاحب الوقت"، أو الجامع الكبير كما يسمى في قفصة، تم تشييده خلال عهد الأغالبة في القرن التاسع الميلادي، مثلما تدل على ذلك لوحة رخامية على أحد جدرانه.

وأقيم المسجد على أنقاض كنيسة كما يتبين من رسوم صليب على أعمدة وتيجان بيت الصلاة مغطاة بمادة الجبس.

و"ليس هناك تاريخ محدد بدقة لبناء هذا المسجد"، كما يقول الشيخ محمود بن المختار فاخت، إمام الجامع، مدير فرع التعليم الزيتوني في محافظة قفصة البالغ عدد سكانها نحو 337 ألف نسمة من أصل حوالى 11 مليون نسمة.

والتعليم الزيتوني هو تعليم أهلي تقليدي يرجع إلى جامع الزيتونة، وله فروع في أرجاء تونس، وجرى إيقافه بعد استقلال البلاد

ويستدرك فاخت بقوله: "المرجح هو أن بداية البناء كان عام 70 هجري على يد يزيد بن معاوية، قبل أن يتم الإنجاز عام 103 هجري".

فيما تقول سارة بن حمد، وهي متفقدة في معهد التراث (حكومي)، إن "الأبحاث تفيد بأن تأسيس المسجد يعود إلى القرن الثالث الهجري في العهد الأغلبي، ولم نجد ما يدل على سنة تأسيس المسجد تحديداً، وما تم ذكره إلى الآن هو مجرد اجتهادات".

وتوضح بن حمد، التي يقوم عملها على متابعة أعمال الصيانة والترميم، في حديث مع وكالة الأناضول، أن "المسجد شهد عمليات ترميم وتحسين في الفترة الحفصية (أسسها أبو زكريا يحيى بن حفص في تونس ودامت بين عامي 1229 و1574) والعثمانية (منذ 1574 وحتى 1881)".

و"مع فتح معهد التراث في قفصة قبل ثلاث سنوات، تعهد المعهد بالمحافظة على هذا المعلم.. وبالتأكيد فإن الأبحاث التي ستجرى ستؤكد بالتحديد تاريخ هذا المسجد"، وفقاً للمتفقدة في معهد التراث.

"مسجد "سيدي صاحب الوقت"، أو الجامع الكبير كما يسمى في قفصة، تم تشييده خلال عهد الأغالبة في القرن التاسع الميلادي"

وتشغل قاعة الصلاة قرابة 60 متراً على 15 متراً، وخصص جزء منها كقاعة صلاة منفصلة للنساء وساحة خارجية تستغل صيفاً لأداء صلاة العشاء، والتراويح حيث يحل شهر رمضان في فصل الصيف.

ووفقاً لإمام المسجد، "يجمع المؤرخون على أن الجامع الكبير في قفصة هو ثالث أقدم جوامع أفريقيا بعد مسجدي عمرو بن العاص في القاهرة بمصر وعقبة بن نافع في مدينة القيروان التونسية".

و"المسجد الكبير" في قفصة مصنف معلماً تاريخياً من قبل الدولة التونسية منذ 1 مارس/آذار 1915، بأمر من الباي (والي عثماني) محمد الناصر باي (حكم من 11 مايو/أيار 1906 إلى 8 يوليو/تموز 1922).

"يجمع المؤرخون على أن الجامع الكبير في قفصة هو ثالث أقدم جوامع أفريقيا بعد مسجدي عمرو بن العاص في القاهرة بمصر وعقبة بن نافع في مدينة القيروان التونسية"

في أحد أركان المسجد، وتحديداً الجهة الشرقية حيث كان المحراب الأصلي للمسجد قبل أن يتم تحويله بعد التوسعة، توجد على أحد رفوف الخزانات المهملة مخطوطات نادرة كتبت بخط اليد؛ لكن جراء الإهمال لم يعد باستطاعة القارئ قراءة عناوينها ولا بعض محتوياتها.
وتلك المخطوطات تعود الى بداية القرن التاسع عشر الميلادي، وتتحدث عن السيرة النبوية، وتفاسير أحاديث والقرآن، ومن الصعب التعرف على مؤلفيها لتلف أجزاء منها.

توفيق غلالة، وهو مؤذن المسجد الكبير، يقول إن "هذا المكان أصبح روضة قرآنية، وكانت به العديد من المخطوطات لكن تم نقلها إلى جهات غير معلومة.. للأسف لم نجد متابعة لهذا المسجد من الدوائر الرسمية".
في أواسط تسعينيات القرن الماضي قامت السلطات المحلية والمركزية بإعادة تهيئة (ترميم) المسجد، لكنها، وبحسب غلالة، "لم تكن وفق مقومات صيانة المعالم التراثية.. فلم يكن البلاط مثلا متطابقاً مع الزخرفة الإسلامية القديمة".

ومنذ تأسيس المسجد وضعت أمامه ساعة شمسية، وجاء منها اسم المسجد (سيدي صاحب الوقت)، ويستدل بهذه الساعة على توقيت الصلوات

الخمس عبر خطوط العرض والطول التي أقيمت بهندسة رياضية.
ومن هذه الساعة جاءت تسمية المسجد بـ"سيدي صاحب الوقت"، وهي تسمية شعبية غير مدرجة في الدفاتر الرسمية، حيث كان المؤذن قديماً يحترم بدقة وصرامة التوقيت، فيؤذن حالما يدخل وقت الصلاة.

كما ذكرت بعض المصادر التاريخية بأن مدينة قفصة كانت محاطة بقصور عديدة تعرف بمدينة القصور وتوفر شتى أنواع الفواكه وخاصة الفستق الذي يصدر إلى سائر مدن افريقية ومصر والأندلس وسلجماسة .
تعتبر قفصة من أكثر المدن قدما في البلاد وقد نمت هذه المدينة بعد أن تم اكتشاف الفسفاط في ربوعها على يد فيليب توماس سنة 1885م. وخلال الفترة الاستعمارية التي امتدت من 1881 إلى 1956 خضعت المنطقة إلى الحكم العسكري المباشر وقد جسدت من خلالها نموذجا للنضال الوطني المتنوع في أشكاله بما فيها المسلحة .
يمكن القول بأن مدينة قفصة تزخر بمعالم تاريخية هامة وتعتبر الدور التي تؤثث احياء المدينة رافدا لهذا التنوع وتعود إلى حقبة زمنية معينة من تاريخ المدينة مثل دار «لونقو»

«دار اللونقو» التي شيدها القايد بكير بن اسماعيل الزمرلي سنة 1818 وهي على شاكلة قصر صغير على النمط التركي ويتواجد على مقربة من حومة الوادي ووادي الباي والبرج الاثري والجامع الكبير ويتكون المبنى من مدخل عال الاسوار و»وسطية» فسيحة ومداخل ودرايب وسقايف وبوابات واقية واجنحة وطواب عديدة وكل لها خصوصيتها وتبرز بالمبنى عدة زخارف داخلية وخارجية على الابواب والنوافذ والاسقف والاجهزة ذات الجودة العالية من الحرفية والاتقان وتاريخيا ومع دخول الاحتلال الفرنسي سنة 1881 تحول هذا «القصر» الى مقر مكتب شؤون الاهالي اين استقر فيه القايد احمد بن يوسف وعائلته ويحمل هذا البيت اسم اخر عائلة امتلكته وتحول هذا المبنى منذ عشريات خلت الى مقر لجمعية صيانة مدينة قفصة ويحتوي على مكتبة ومركز بحث ومعرض دائم يخص مجموعة من ادوات تراثية واخرى للصناعات التقليدية ويعد فضاء نشيطا في السنين الاخيرة من خلال احتضانه لعديد التظاهرات التي تهتم بإقامة الندوات والمؤتمرات والمعارض والامسيات الثقافية المتنوعة مما جعل هذه

الدار بمثابة المقصد الدائم الذي يأتيه الباحثون والمهتمون بالشأن التراثي والثقافي والطلبة و ابناء المدينة وخصوصا ممن لهم غيرة على حفظ ذاكرة مدينة قفصة.

ودار «السماوي»

ودار «الشريف«

.وقد جمعت هذه الدور بين خصوصيات الطابع المعماري المحلي وتأثيرات
عمائر تونس وصفاقس في ذلك العصر. كما ان المساجد والزوايا ومقامات الصلحاء ذات القباب الجميلة المنتشرة في كل أرجاء المدينة تعود إلى نفس الفترة.

بلدية قفصة

تقديم بلدية قفصة

تاريخ الإحداث : 21 جوان 1890

معطيات حول مثال التهيئة المصادق عليه سنة 2009

المعطى		المثال المصادق عليه سنة 2009
مساحة مثال التهيئة العمرانية(1)		2640
مساحة المناطق الفلاحية (2)		1065
مساحة المناطق العمرانية (3)		1575
مساحة مناطق التوسع		105
مساحة مناطق السكن الفردي	المساحة	740
	الكثافة السكنية	45
مساحة مناطق السكن شبه جماعي والجماعي	المساحة	38
	الكثافة السكنية	55
مساحة المناطق متعددة الوظائف (سكن جماعي- تجارة- خدمات)	المساحة	52
	الكثافة السكنية	-